قراءة

هذه الموسيقى الإنسانية الواجب إعادةُ تعريفها باستمرار

فلسطين الشعراء تشعّ من دون أن تُسمّى

لئن فتحت هذا الكتاب واستمعت إلى أصواته، قد تجد نفسك، من دون تحيّز ومن دون ارتباط بأيّ معسكر، متأثراً بحقيقة أنّه بدوره ليس خاضعاً لأيّ انحياز أيديولوجي أو سياسي

جان لويس كوفير

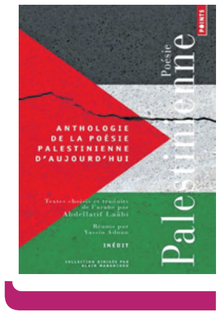

هل من فواحش الأمور أن نتحدّث شعراً في زمن المجازر؟ بالعكس، هذه الموسيقى الإنسانية، الواجب إعادةُ تعريفها باستمرار، تظلّ أرضية مشتركة ولحظة قول جديرةً بالتقاسم. وقد تمّ تقديم دليل جديد على ذلك، بثراء وقوّة تعبير أكثر إثارة للإعجاب، لأنّه يتجاهل ويتجاوز أيّ خطاب أيديولوجي أو سياسي، من خلال «أنطولوجيا الشعر الفلسطيني الراهن» التي نُشرت قبل ارتداد المأساة من جديد (نصوص اختارها وترجمها عبد اللطيف اللعبي وجمعها ياسين عدنان، منشورات سوي، 2022). بدايةً، قد يقول قائل إنّ عنوان هذه المجموعة، «أنطولوجيا الشعر الفلسطيني الراهن»، وحده يصطدم بما يحدث هذه الأيام بالتحديد: الشعر والمجازر مستمرّة! كلمات بين الأنقاض، ولقول ماذا؟ كلمات ضدّ القنابل، ولكن أيّ منها؟ دعاية؟ هل تُضاف الكراهية إلى الكراهية؟ أو ما هو أسوأ: كلام جميل من نخبة مثقّفة؟ بلسمٌ على الأجساد المبقورة؟ الكثير من الشكوك حتى قبل النظرة الأُولى... ولئن تجشّمتَ عناء فتح هذا الكتاب والاستماع إلى أصواته، قد تجد نفسك، من دون تحيّز، ومن دون ارتباط بأيّ معسكر، متأثراً بحقيقة أنّه بدوره ليس خاضعاً لأيّ انحياز أيديولوجي أو سياسي. ومن دون أن تكون قارئاً للشعر، وبالاستماع فقط إلى ستّ وعشرين امرأة ورجلاً مجتمعين في هذه المجموعة، التي اختارها وترجمها الكاتب المغربي عبد اللطيف اللعبي، الذي يسلّط الضوء على «التعدّد الصوتي والأوركسترالي المذهل» من اكتشافه الخاص، ربما سيكون لديك شعور عميق بالمساهمة في تقاسُم مفيد. آه، لكن هل هذا هو الشعر؟ حسناً، هؤلاء الفلسطينيّون يشبهوننا...

إخوة وأخوات في «الجنون» نفسه

في ديباجته المبيّنة، والضرورية لنا نحن الذين لا نعرف شيئاً تقريباً عن الشعر الفلسطيني، ربما باستثناء شعر محمود درويش (دعونا نستشهد هنا بمجموعة القصائد التي لا تُنسى مِن «ضاقت بنا الأرض»، المنشورة في السلسلة المرجعية «شعر»/ غاليمار)، يُذكّر عبد اللطيف اللعبي بنشأة الشعر الفلسطيني وتطوّره، الذي يمكن القول إنّه لم يأت من عدم، لدرجة أنّ مجرّد اسم هذا البلد «صار شعريَّةً في حدّ ذاته»، وذلك بفضل الأجيال المتعاقبة من شعرائه، منذ بداية القرن العشرين، إذ بدأ الروّاد في إدراج ذاكرته الخاصّة في ذاكرة بلدان الشرق الأدنى. ومع جيل الستينيات والسبعينيات الذي تبلورت فيه عناصر الهوية الثقافية والوطنية من خلال الجمع بين «عدد كبير من الأصوات القوية والأصيلة» حول درويش، ومن خلال الانتشار الأحدث للأصوات المعاصرة، المعروفة قليلاً للأسف بما يتناسب مع التغييب الذي عانته القضية الفلسطينية، بينما الأصوات النسائية باتت تفرض نفسها من خلال كسر أكثر التابوهات رسوخاً في العقلية العربية الإسلامية المحافظة، متحدّثات بصراحة عن أجسادهن ورغباتهن وإحباطاتهن، مقدّماتٍ الجنس والشعور بالحبّ، في نسخة غير مسبوقة بالضرورة. وفي هذا الصدد، يُوضّح اللعبي قائلاً: «الأمر المدهش هو أنّ الرجال يبدو أنّهم قبلوا هذه الأعمال الجريئة، بل طلبوا المزيد! لأنّهم بدورهم يبحثون عن أنفسهم، بعد أن هجروا هذه الحرب الداخلية ليواجهوا بشكل أفضل أشكال الهمجية التي يتعرّضون لها بشكل يومي من قِبَل الاحتلال. فالتقى الجميع على هذه الجبهة، لكن بشكل مختلف عن أسلافهم الذين كانوا، لبعض الوقت، مَثَلهم الأعلى. وذلك لأنّ القضية الفلسطينية، التي كانت تحظى بدعم واسع النطاق في ذلك الوقت في جميع أنحاء العالم، تمّ حجبُها بذكاء من قبل جالوت المحلّي، وباعتها أنظمة الإخوة العرب الزائفين، وتمّ التخلّي عنها إلى حدّ كبير من قبل ما كان يُسمّى بـ‹الشارع العربي›. علاوة على ذلك، تغيّرت البيانات الاجتماعية والسياسية على الأرض بشكل جذري. ولم تعُد إمكانية إنشاء دولة فلسطينية تنتمي إلى اليوتوبيا الجميلة، بل إنّها بكلّ بساطة مستحيلة. لقد أصبح الفلسطينيون، وفقاً للصيغة المتّبعة، ‹شعباً بلا أرض›، مثل الأكراد والإيغور والروهينغا وغيرهم من الشعوب المحكوم عليها بالتيه، والكفاح المستمرّ من أجل الحفاظ على هويتهم وضمان بقائهم».

فتاة فلسطينية مع قطّتها أمام بيتها بمدينة غزّة، آذار/ مارس 2021 (Getty)

مجرّد اسم هذا البلد صار شعريةً في حدّ ذاته

الحقيقة الأكثر إثارة للدهشة في هذه المختارات هي أنّ مؤلّفيها، المنتشرين في جميع أنحاء العالم، بعيداً عن إنتاج شعر مُجزّأ أو مُنتزَع من جذوره، يمنحون في كتاباتهم الإحساس المشترك بأنّهم «يعيشون داخل كيان لم تعُد لهم حاجة إلى تسميته: الفردوس المفقود، وبلد الخيال، وأرض الشهيد، وأرض الحرب الكامنة، ومكان الموت، ومقبرة عملاقة، وقدس الأقداس، والعطور، والألوان، وجمال الحجارة، والأشجار، والأعمال البشرية... التي قلّ نظيرها. ولنا أن نُترجمها: فلسطين...». أخيراً، ولعل هذا هو الأمر الأكثر لفتاً للانتباه والأكثر إثارة للمشاعر، في كلّ نبرات الضيق أو الغضب، أو دفْقِ الأحاسيس أو الفكاهة السوداء: أنه حتى بدون تسمية فلسطين، وبدرجة أقل «سلطاتها»، فإنّ الشعراء الممثّلين هنا يعكسون نوعاً من المزاج الفلسطيني، كما هو الحال غالباً مع الشعوب المضطهدة، في كتاباتهم حيث يتعلّق الأمر أساساً، وفي أغلب الأحيان بعبارات بسيطة وملموسة، بما يعيشونه: «لن نسمع سوى أفراد يروون تجاربهم الخاصّة، ومعيشتهم اليومية، في أحلام يقظتهم وكوابيسهم (وثمّة الكثير من هذه الأخيرة!)».

مثل كثير من المصائر الشخصية

وتتوالى الأسماء والأعمار والأماكن التي يتحدّثون منها وانشغالاتهم المتنوّعة وما يقولونه، من رجاء غانم، الأكبر سنّاً (وُلدت عام 1974 في دمشق، وتعيش اليوم في القدس، تنشط في الصحافة وتدير ورشات للكتابة) إلى يحيى عاشور، الأصغر سنّاً (وُلد في غزة عام 1998، يكتب قصصاً لليافعين إلى جانب أشعاره)، مروراً بأربعة وعشرين صوتاً آخر، غالباً ما تكون مؤثّرة أو لاذعة أو هجائية، كلّ منها يستحضر مصيراً ويرسم آثاره بكلماته. وهذا مروان مخول في «أبياته التي بلا منزل»: «كفى! يقول الموت للطُّغاة/ لقد شبعت»، أو بعد ذلك: «في العاصفة/ وعلى متن القارب/ وسط العاصفة/ نضرب الأمواج بالمجاديف/ كي تهدأ»، أو أيضاً: «لكي أكتب شعراً ليس سياسيّاً/ يجب أن أصغي إلى العصافير/ ولكي أسمع العصافير/ يجب أن تخرس الطائرة». وهذه رجاء غانم في «ضوئها الخافت»: «امرأة مسكونة بالحُبّ كنتُ/ امرأة مشت بقدميها العاريتين/ فوق خرائط لا تعترف بمعجزة/ وتخاف أن ترجع إلى القبيلة/ هناك حيث تلمع عيون الرجال/ بثأر/ وتنتظرها/ أربعون جلدة».

هل يحتاج الشعر إلى أن يُجْلَدَ ليبرز؟ هل هو إظهار جمالية آلامِيّة مشكوك فيها حين يتمّ الاعتراف بـ«الفضيلة» الإبداعية للمحنة، أو هنا للضيق المشترك، أحياناً إلى حدّ اليأس، الذي يكشف بشكل أفضل جمال «أشياء الحياة» البسيطة وثمنها؟ ما هو مؤكّد هو أنّه، أكثر بكثير من «الخطاب» الأيديولوجي أو السياسي المفيد من الدرجة الأُولى، فإنّ الخطاب الشعري، الذي يدور على حافة العاطفة أو الأعصاب، والذي يأتي من الأحشاء أو القلب، يأتي من لغة مشتركة سنعثر هنا على ومضاته وأصدائه. لكنّ الأمرَ متروك لكلّ فرد، إذن، لإعطاء الصدى لهذه الومضات.

شظايا وأصداؤها

وهنا صيحات جمانة مصطفى، مواليد 1977 وتعيش حالياً في الأردن: أبيع المخالب للعابرات/ على قارعة الطريق/ أفرشها/ أبردها/ ألمّعها/ وأنادي»، أو: «فمن كان فيها نصف وجعي/ فلتقل ها أنا ذي». وهناك ثورات نجوان درويش، مواليد 1978 والموزّع بين القدس وحيفا: كيف ننفق أعمارنا في المستعمرة؟/ كلّ ما ألمحه حولي ‹بلوكات› من الإسمنت/ وغربان عطشانة»، أو مرّةً أُخرى: «حاولت مرة أن أجلس/ على واحد من مقاعد الأمل الشاغرة/ لكن كلمة Reserved/ كانت تُقعي هناك كالضبع». وهناك صيحات كوليت أبو حسين، مواليد 1980 ومقيمة في الأردن: «قالت الجارة الطيّبة: صغيرةً تبدو على الموت!»، وتابعت: «قلبي مقبرة جماعيّةٌ، أيّها الأحبّة»، أو أيضاً: «نحن سلالة القاتل/ عمومة القتيل/ ورثة الذّنْب/ وتلامذة الغربان/ في الأرض الخراب»، وشظايا أشرف فياض، المولود عام 1980، المحكوم عليه بالإعدام في السعودية بسبب نصوص اعتُبرت تجديفية - تمّ تخفيف الحكم إلى السجن ثماني سنوات بعد حملة تضامن دولية: «أن تكون بلا وطن/ يعني بالضرورة أن تكون فلسطينيّاً/ أن تكون فلسطينيّاً/ لا يعني إلّا أن يكون العالمُ كلّه وطنك/ لكن العالم لا يستوعب هذه الحقيقة»...

شظايا كثيرة تتصادى مع كلمات الكبير محمود درويش في «تضيق بنا الأرض»: «على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة: تردُّدُ إبريل، رائحة الخبزِ في الفجر، آراء امرأة في الرّجال، كتابات أَسخيليوس، أوّل الحبّ، عشب على حجر، أمهاتٌ تقفن على خيط ناي، وخوف الغزاةِ من الذكرياتْ». وأخيراً يتمّ النطق بالاسم: «على هذه الأرض ما يستحقّ الحياةْ: على هذه الأرض سيدّةُ الأرض، أمّ البدايات، أمّ النهايات. كانت تسمّى فلسطين. صارتْ تسمّى فلسطين. سيّدتي: أستحقّ، لأنّك سيدتي... أستحقّ الحياة».

(* Jean-Louis Kuffer كاتب وصحافي من سويسرا. ترجمة: محمد خماسي)

مخالَفة التوقّعات

يكتب الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي، في مقدّمة الكتاب، إنّه كان من الممكن، بالنظر إلى الواقع الفلسطيني «أن نتوقّع شعراً متشظّياً غير متجذّر في واقع محدّد، دون وشائج ملموسة تربطه بأرض ومجتمع وثقافة واستمراريّة تاريخيّة، وهذه كلّها نواقص تضع في خانة الإشكاليّات كلّاً من شعور الانتماء والاعتراف والمطالبة بهويّة خاصّة، والحال أنّ الأمر غير ذلك تماماً. تلك إذن هي شبه المعجزة التي تفوّق هؤلاء الشعراء والشاعرات في تحقيقها».

هموم شعرية

الشّعر هو من ينقذني كلّ مرّة

محمد إبراهيم يعقوب

تقف هذه الزاوية مع شاعر عربي في علاقته مع قارئه وخصوصيات صنعته ولا سيما واقع نشر الشعر العربي المعاصر ومقروئيته

جازان (السعودية) ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظلّ ما يجري من عدوانِ إبادةٍ على غزّة؟

لا بدّ لنا أن نعترف بأنّ كلّ هذه الأبجدية لا تملك أن تُنقذ روحاً واحدةً. أهجس بكيفية صياغة كلّ هذا العجز، وأخاف أكثر ما أخاف أن نعتاد. وأسأل: هل اعتدنا؟!

■ من هو قارئك؟ وهل تعتبر نفسك شاعراً مقروءاً؟

أكتبُ لأقرأ تناقضاتي وهشاشتي. أنا القارئ الأوّل لنفسي. ثمّ يأتي قارئٌ آخر لا أعرفه، لكنّه كلّ ما لديّ وأعزّ ما أملك. لستُ شاعراً مقروءاً ولا أحبّ أن أكون. ذلك فخّ على أقلّ تقدير.

■ كيف علاقتك مع الناشر، هل لديك ناشر وهل هو الناشر الذي تحلم به لشعرك؟

حركة النشر لدينا في السعودية في أزهى مراحلها، دُور نشر متحفزة ومبادرة، ووزارة ثقافة داعمة ومؤمنة وطموحة تستهدف الأبعد كلّ مرّة.

■ كيف تنظر إلى النشر في المجلات والجرائد والمواقع؟

لم يعُد من الاهتمامات كما كان سابقاً، إلّا من بعض المجاملات الأنيقة التي تطالعنا من هنا وهناك.

■ هل تنشر شعرك على وسائل التواصل الاجتماعي، وكيف ترى تأثير ذلك في كتابتك أو كتابة زملائك ممّن ينشرون شعرهم على وسائل التواصل؟

دخلتُ في حالة كهذه من قبل، وأعترف بأنها مسكرةٌ إلى حدّ أن تفقد توازنك أحياناً، لكنّي أفقت سريعاً، وعُدت أدراجي إلى أن أكتب ذاتاً صافيةً عبر مشروع كتابي لا ينتظر صدىً أو تصفيقاً، هو الشّعر للشّعر ليس أقلّ.

■ من هو قارئ الشعر العربي اليوم في رأيك؟

ما يبقي يُؤسّسه الشعراء كما يقول هولدرلين. أنا مؤمن بأنّ الشّعر هو من ينقذني كلّ مرّة، وإن كنتُ قد تراجعت كثيراً عن فكرة أنّ الشِّعر قد ينقذ العالم كما كان يدّعي ريتشاردز. سيبقى الشعر ما بقي الإنسان، لا شكّ عندي في ذلك. وسيجد الشاعر دائماً قارئه في كلّ زمن، لذا لا بدّ أن نُقاوم.

■ هل توافق أنّ الشعر المترجم من اللغات الأخرى هو اليوم أكثر مقروئية من الشعر العربي، ولماذا؟

لا أتّفق إطلاقاً. أؤمن بأنّ الشِّعر هو الشِّعر في كلّ اللغات، والقصيدة الحقيقية سوف تلمسك بأيّة لغة كانت. هذا مع عدم إهمال دَور الترجمة الجيّدة، ترجمة روح النص لا كلماته.

■ ما مزايا الشعر العربي الأساسية وما نقاط ضعفه؟

من ميزات الشعر العربي الغرائبية أنّه كلّما راهن أحدٌ على تهميشه، وانتهاء وقته، قفز إلى صدارة المشهد الإنساني من جديد، ولا يحدث ذلك إلّا عبر تجارب شعرية كبيرة أخلصت للشعر فلم يخذلها. وأيضاً عبر اقتران الروح العربية بهذا الشعر تأريخاً وحياةً وهويةً. أمّا نقطة ضعفه، فربما هي القدرة على تكديس آباء مصطنعين. الشعر دائماً في المستقبل.

■ شاعر عربي تعتقد أن من المهمّ استعادته الآن؟

طرفة بن العبد أحياناً، ومحمود درويش دائماً.

■ ما الذي تتمنّاه للشعر العربي؟

جان كوهين صاحب كتاب «بنية اللغة الشعرية» وكتاب «الكلام السامي» كان يؤمن بأن لا وجود لما يُسمّى المشهد الشعري. هناك شعراء يتمثّل بهم الشعر في كلّ عصر وفي كلّ مكان. أتمنّى أن يناضل الشعراء الحقيقيون في سبيل أن يتنفس الشعر هواءً جديداً، أن يتعلّموا كلّ يوم، أن يُعبّروا عن هذا العالم السريالي بسريالية أرقّ وحسٍّ إنسانيٍّ عالٍ، أن ينحازوا لهذا الكائن التائه في هذا العالم الذي يزداد تعقيداً كلّ لحظة، وألّا يُقلّدوا أحداً، وأن يكتبوا كلّ يوم.

بطاقة

شاعرٌ وكاتب سعودي من مواليد مدينة جازان عام 1972. حاصل على بكالوريوس في الفيزياء من كلّية التربية عام 1994 ويعمل في التدريس. من إصداراته الشعرية: «رهبة الظلّ» (2001)، و«تراتيل العزلة» (2005)، و«الأمر ليس كما تظنّ» (2013)، و«ليس يعنيني كثيراً» (2015) الحائز «جائزة محمد الثبيتي للإبداع»، و«ما لا يُنسى.. ما لا يَمُرّ: جازان تتذكّر» (2022).

محمد إبراهيم يعقوب

إطلالة

جسدٌ مُهاجر... جسد محتل

مصطفى قصقصي

رواية الجسد المُهاجر

تصف رواية «لا تقولي إنّك خائفة» للإيطاليّ جوزبه كاتوتسيلّا حياة سريعة ومقطوعة بين بحرين مغلقين: المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسّط، مروراً بأكثر من صحراء. البحر، الذي تقع مقديشو على ساحله غيرُ متاح لسامية بطلة الرواية، لأنّه محاصَر بنيران العشائر المتناحرة. وهكذا يصبح الجري بحرها، كما تقول. لكنّها تضطرّ في نهاية المطاف إلى البحث عن باب بحري آخَر للسجون التي تعيشها. «لا تقولي إنّك خائفة» هي رواية الجسد المُهاجر، الجسد المخدوع، الموجوع، المفصوم عن إنسانيته، المفتَّت إلى بيولوجيّته، الجسد الطائر إلى المياه، الغارق والناجي من جنون القبيلة. تُصبح «الرحلة»، كما يسمّي المهاجرون الجحيم الذي يقطعونه نحو وعد بحياة تليق أكثر بإنسانيتهم، رحلةَ حياة أو موت. رحلة كارثية لحياة «مهرَّبة» تُناضل بكلّ ما أوتيت من شهوةِ حرّية من أجل الدفاع عن كرامتها في مواجهة الصحراء والعنف والخوف. يحاصر سامية عالمٌ ديستوبي: الحرب وفقداناتها وخساراتها التي لا عزاء لها: الطفولة، الصداقة، الحُب، البحر. عالم يتمترس فيه الذكور بعنفهم، وتعتصم فيه الإناث بحبل الحياة السرّي. تحاول سامية حركةً عكسية من عالم ديستوبي حقيقي نحو عالم يوتوبي متخيَّل. تركض لتنجو. بينها وبين هذا العالم رجال وبنادق وحروب وصحراء وعالم غربي متبلّد المشاعر تُجسّده في الرواية السفينة الإيطالية التي تصدّ المهاجرين في إطار ميثاق جرى توقيعه بين نظام القذافي والحكومة الإيطالية يقضي بمنع المهاجرين من الإبحار نحو السواحل الإيطالية، مقابل معونات اقتصادية لجهات غير واضحة. تنجح سامية في ألّا تُصبح رقماً، تنجح في أن تنشل اسمها من الغرق، لكن الثمن رهيب. هي رواية المراهَقة المثقلة بميراث العنف الاستعماري، وبالحرب الأهلية وبالأصولية المنكوبة، وبالذكورية المرعوبة من الأنوثة والساعية إلى قمعها وتدجينها وإسكاتها. هي، أيضاً، رواية المراهَقة ككابوس استعماري في مواجهة خديعة الواقع وخديعة المستقبل. الخوفُ ترفٌ لا يُحتمل، في أفريقيا كما في فلسطين.

■ ■ ■

جسدٌ محتلّ ينزف كأنّه يتنفّس

في لحظة ذروة دامية، من العرض الراقص «صفر-صفر» لـ«فرقة الأمل» في الناصرة، يرتفع جسدٌ كغيمة حمراء في الهواء، مرتطماً، في تحليقه المأساوي نحو الهاوية، بأيدٍ تتناوب على حمله... أو على قتله، قبل أن يسقط سقوطاً معتِماً... مدوّياً...

يُصبح الجسد صرخةً... صرخة لا تقوى لغةٌ على حملِها... صرخة خارج المعنى... صرخة لا تشير إلى أيّة ولادة...

ننخطف إلى أوديسّة جسد فردي وجماعي تائه في مصائره: يغرق ويطفو... يعلو ويزحف... ويرقص... يفيض وينقُص... جسدٌ محتلّ ينزف كأنّه يتنفّس ويتنفّس كأنّه ينزِف...

ينجح العمل، إلى حدّ بعيد، في صياغة نصّ بصري حركي جارح في أناقته وغزارته التعبيرية... نصّ قوي ومؤلم ويائس كحرب أهلية... لكنّه لا يتخلّى عن الرقّة والعذوبة، بل يُشهرهما سيفاً من أنوثة مقاومِة في وجه القسوة... والصمت... والموت.

(شاعر واختصاصي نفسي عِيادي من فلسطين)

متابعة

بيت الدين معرضان تشكيليّان بدلاً عن المهرجان

«صلاةٌ للأرض» تُجاور لوحات عبد الحميد بعلبكي

تقتصر فعاليات المهرجان اللبنانيِ هذا العام على معرضَين تشكيليّين، حيث أُلغيت أنشطته الاحتفالية بسبب العدوان الإسرائيلي على غزّة وجنوب لبنان

بيروت ـ **العربي الجديد**

جانب من ميدان القصر حيث وُضع تجهيز بعنوان «لهب» لـ زاد ملتقى، (تصوير: نبيل إسماعيل)

في الخامس عشر من مايو/ أيار الماضي، حسمت اللجنة المنظّمة لـ«مهرجانات بيت الدين» أمرها بإلغاء التظاهرة الفنّية هذا العام، نظراً «لِما يمرّ به جنوب لبنان وأهله من أوقات عصيبة، وما تعيشه فلسطين من حالة إبادة جماعية متواصلة على مرأى العالم وصمته»، وفقاً لما جاء في بيان للجنة. وضمن هذا الإطار اقتُصِرت فعاليات المهرجان على معرضَين تشكيليّين فقط، افتتحا مساء الخميس الماضي في الغاليري المقبَّب وميدان قصر بيت الدين الواقع في البلدة اللبنانية (40 كم جنوب شرق بيروت)، ويتواصلان حتى الخامس والعشرين من أيلول/ سبتمبر المُقبل.

«ORO TERRAM» (صلاة للأرض) عنوان المعرض الأوّل الذي يوقّع لوحاته التشكيلي والموسيقي اللبناني زاد ملتقى (1967)، وفيه تمتزج دُكنة الأعمال والسواد الطاغي فيها مع الظلال المطبِقة داخل أروقة القصر التاريخي الذي يعود بناؤه إلى أواخر القرن الثامن عشر، قبل أن نعبر نحو تجهيز ضخم على هيئة شمس مصنوع من البوليسترين المطلي باللون الذهبي بعنوان «لهب»، وُضع في ميدان القصر المفتوح تحت الشمس، في إشارة للعبور من الظلام إلى النور. في حديثه إلى «العربي الجديد»، يوضّح ملتقى أنّه استغرق في إنجاز أعمال معرضه العشرين قرابة شهرين ونصف، أمّا التجهيز فاستغرق منه ثلاثة أسابيع، وقد اشتغلها بعد عودته مؤخَّراً إلى لبنان. ويُرجع المتحدّث هذه المدّة القصيرة في الإنجاز إلى التحضير النفسي العميق الذي هيّأه لرسم اللوحات، مضيفاً: «السواد الذي نراه مُتّصلٌ بواقعنا؛ إذ لا يمكن للفنّان أن يكون منفصلاً عمّا تعيشه بلاده. مع ذلك، حرصت عبر الربط بين المعرض والتجهيز على تأكيد أهمّية الأمل وإبقاء جذوته متّقدة في النفوس، وكما نرى فقد تعاملت مع كلّ لوحة على حِدة بوصفها مغامرة، فعندما أبدأ الرسم لا أعرف إلى أين سأصل. كلّ ما أعرفه أنّني أريد أن أضع الألوان على الورق». في لوحات ملتقى، الذي تُعرض أعماله حالياً في معرض آخر بعنوان «Oro Tenebris» يحتضنه «غاليري تانيت» في بيروت حتى مطلع أغسطس/ آب المقبل، رغبة في الإفصاح لكنّها مقيّدة، وهذا لا يتمثّل بالخطوط الذهبية التي تشقّ سواد اللوحة، بل أيضاً بالخطاطات التي تتضمّنها بعض الأعمال؛ مثل «الكلمات التي لا أقولها لك»، حيث نلحظ فيها حروفاً دقيقة وهشّة تتركّب فيما بينها، ولكن من دون قدرة منّا على تفكيك تلك الرسائل المَطويّة بين الحروفية والتشكيل. أمّا المعرض الثاني فهو جماعي ويحمل عنوان «مناظر الانتماء»، وهو تحيّة للتشكيلي والشاعر اللبناني وابن بلدة العديسة الجنوبية عبد الحميد بعلبكي (1940 - 2013)، الذي تقود أعماله، بما فيها من مسحة انطباعية قويّة، إلى التأمّل في الطبيعة اللبنانية. وإلى جانب بعض أعمال الفنّان الراحل، يتضمّن المعرض لوحات أُخرى تُقارب أسلوبه للفنّانين: مازن رفاعي، وندى متّى، وأسامة بعلبكي (ابن الفنّان الراحل)، وريبال ملاعب، وهلا عز الدين، وحسان الصمد، والمصوّر الفوتوغرافي جاك دباغيان. يُذكر أنّ المهرجان، الذي تأسّس عام 1985، أُقيم العام الماضي في طبعة دولية شاركت فيها فرق وفنّانون عرب وأجانب، وتلَت دورة ذات طابع محلّي في صيف 2022، بعد انقطاع في 2020 و2021.

محاولة تشكيلية لاستنهاض الأمل في وجه واقع لبناني ينهار

فعاليات

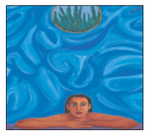

حتى الأربعاء المُقبل، تستمر منصّة «أفلامنا» في عرض فيلم **قَبلة** (2008) للمُخرج الجزائري **طارق تقية** (1966). على مدى ساعتين و18 دقيقة، نتعرّف إلى قصّة مالك الذي يحصل على وظيفة في الغرب الجزائري، حيث تُعهد إليه مسؤولية إقامة خطّ كهربائي جديد عبر القرى الفقيرة والمناطق النائية التي تعاني من الإرهاب.

عند السابعة من مساء الجمعة، الثاني من آب/ أغسطس المُقبل، تستضيف «مكتبة تنمية» في فرعها بالمعادي (القاهرة) حفل توقيع ومناقشة مجموعة **كلّ هذا الدفء في عينَي مريم** للشاعرة والكاتبة المصرية **إيمان جبل** (1990)، والتي صدرت حديثاً. يناقش الكاتبة كلٌّ من **هويدا صالح** و**عمر شهريار**.

يُفتتح، عند الخامسة من مساء بعد غد الأربعاء، في «غاليري أجيال» ببيروت، معرض **سيج الماء** للتشكيلية اللبنانية **ريم الجندي** (1956). تُقدّم الفنّانة في لوحاتها مشاهد عن رحلة العبور من العالم المعروف إلى آخر مختلف، عبر نسيج من الألوان يحضر فيها الأزرق وتدرّجاته، عاكساً أعماق العوالم الداخلية.

تعرّف على العلماء المسلمين عنوان ورشة يُنظّمها «متحف الفنّ الإسلامي» في الدوحة عند الثالثة من بعد ظُهر السادس من الشهر المقبل. تضيء الورشة، الموجّهة للأطفال بين 11 و16 عاماً، على إنجازات العلماء المسلمين، مثل **ابن الهيثم**، في نشر العلوم والإسلام، وذلك عبر الاكتشافات والاختراعات التي قدّموها إلى البشرية.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

هند جودة شاعرة

في الحرب، لا وقت للشعر

صباح مساء تتسع المقابر الجماعية ويتآكل قلبي! لا تموت غزة بصمت، تصرخ، تنوح وتستجير، لكن ذلك لا يغير شيئاً! وأتساءل: هل يدرك القاتل حقاً وجوه قتلاه؟ هل يعرف أن أهدافه الطرية لا تستحق كل هذه الذخائر؟ صباح مساء لا يتوقف شريط الأخبار، تغزوه غزّة، تراقب كيف يشيّع ضمير الناس الميت على شكل أخبار عاجلة وتصريحات بأربطة عنق، وكيف يتمّ التلاعب بالألفاظ وبذل أقصى الدقة في تبرير أقسى القتل؟ تظنّ أن صراخها لا يسمع، لكنها لا تتوقف عن العد! تنام غزة وتصحو على صراخ ساحات بعيدة باسمها تريدها حرة بهتافات تبدو لها مثل حلم Free free Palestine، لكنها تستفزّ هراوات الشرطة والاعتقال الجماعي أليست تلك بلاد العم سام وأخواتها؟

- إنها أيضاً بلاد محتلة يا صديقي

تجرب غزة أن تقول شكراً للهتاف والدموع. تكتب شكراً على خيمة النزوح ثم تفكها وتركض، يجتاحون رفح، يغلقون المنافذ كلها. الوقت ينفد، لا يكفيها الهتاف الذي يجعلها تبكي وتبتسم، فالمقابر ما زالت تبتلع أطفالها كل ثانية!

صباح مساء. في الدبابة والطائرة لا يستريح الضاغط على الأزرار في لوحات التحكم، ما زال يرسل القذائف والصواريخ ويرسم خطوطاً على الخريطة الكبيرة للبلد الصغير. هيه، أيها الجنرال، هل يستحق الأمر كل هذا العناء؟ كان يمكنك أن تحترم حياتي ولا تسرق بيتي، كان يمكنك أن تعيش بلا إفساد في مصيري وسفك لدمائي، لكنك أيضاً يحتلك الشيطان.

في منتصف كل جسد حفرة صغيرة، ما زالت تتصل بحبل سري لم ينقطع، حبل يمدنا بالحب والرحمة والقلق الشهيّ، لكن القلق لم يعد اعتيادياً وشهياً عند أمهات غزة، بل صار رعباً لا يهدأ، واشتهاءً يقرص بطن المدينة التي فقدت موائد الأمهات المعتادة وفقدت كثيراً من الجالسين المحتملين حول ابتسامتها.

غيرت غزّة عاداتها، فقدت شكلها الأليف وسلوكها الرحيم، صارت بنتاً لا تجد من يرتب شعرها أو يبدل ملابسها المعجونة بالغبار والرمل ورماد البيوت، وإني لأراها ابنتي في خوفي عليها وقلقي من اضطرابها وعجزي أمام صرخات ألمها الوحشيّ

هل سنضيع طرقنا إليك يا غزة ونحن نشهد غيابك شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتاً، وعائلة تلو عائلة، ونحن على بعد مجهول من احتمال أن نكون يتاماكِ الجدد؟

من يعيد إلى نساء غزة ضجرهن العادي؟! من يعيد إليهن مكانسهن، قدور الطبخ وجلسة العائلة حول طعامها الساخن؟ من يعيد إليهن انتظار عودة الصغار من المدارس؟! من يعيد لحظة الاستيقاظ في الصباح العادي وكسل الصغير الذي يسألها خمس دقائق نوم أخرى ليكمل الحلم! من يعيد إليهن نهارهن الهادئ وحبل غسيل طويل؟ من؟

الحزن هدية العالم لنا

نحن أطفاله الذين لا يكبرون!

وحزننا الفريد يأتي متغيراً وكأنه يخشى علينا من الملل!

فقد يكون انفجاراً في سقف البيت،

وقد يشبه قلع أسفلت البلاد،

أو سحق أشجارها ومقابرها

قد يأتي على شكل قذيفة عمياء أو غبية،

وقد يمنع وصول الطعام فترتجف المعدة من صوت خوائها اللعين

بكينا طويلاً كي نستحق هداياه فجاءت من جديد على شكل خيمة!

أيها العالم،

نحن اختصار حزنك العميق والوحشي،

نحن بحيرتك المالحة.

■■■

ولدت في مخيم البريج، في وسط قطاع غزة، كبرت وتعلمت الكتابة والتعبير في مدارس أونروا للاجئين، رأيت الجنود في زمن الانتفاضة الأولى وهي تداهم البيت في أي وقت تشاء بلا حرمة للصباح أو المساء، سمعت اللغة العربية المتكسرة للجنود، النبرة الغاضبة التي تأمر بفتح الباب ثمّ تحقق وتسأل عن ساكني البيت قبل تفتيشه بحثاً عن مختبئين، عرفت اللباس العسكري مضافاً إليه الخوذة الثقيلة، سمعت الركض في النهار أو في منتصف الليل، لا فرق! وحفظت أصوات الصفير المتقطع والتكبير الجماعي حين يقبض الجنود على أحد الشباب فينبه بعضهم بعضاً بأصوات بشرية متفق عليها مسبقاً، قرأت البيانات الطازجة وهي تكتب بأيدي الملثمين على جدران المخيم، عرفت أسماء الفصائل وشعاراتها في سنّ مبكرة وقفت قرب الملثم الإعلامي، وشعرت بغليان الأدرينالين في العروق، وأنا أسمع سرعة أنفاس الكاتب على الجدار، المتربص بدورية الجنود!

عشت الخوف الذي يدفع مجموعة كبيرة من الأطفال والشباب إلى الركض حين ينطلق الرصاص من القوة المقتحمة لمدخل المخيم ثم الانتشار في أزقته، عرفت معنى منع التجوّل حتى إشعار آخر، ومعنى أن تمتد يد الجيران عبر النوافذ المتلاصقة بأكياس الخضار وأطباق الطعام وربما الخبز في وقت منع التجول ذاك!

مستمر هذا الوجع الفلسطيني منذ 76 عاماً، وتحت حصار مستمر لغزة منذ صارت بلا حواجز داخلها وانتقلت الحواجز إلى حدودها الخارجية، لتلقب بأكبر سجن في العالم منذ العام 2006 وحتى اليوم، أي بما يعادل ثمانية عشر عاماً من عمري وعمرها، لقد ظلّل الحصار والحرمان وضيق الخيارات سنوات نضجي، وظلّت الكتابة هي ثمرة قلبي البرّاقة في عتمة انقطاع الكهرباء وتحت سماء تزنّ فيها طائرات الاستطلاع بلا توقف! لقد اخترت الكتابة لتكون هي طريقتي في التعريف والمعرفة بنفسي، وقد كتبتُ هذه النصوص في الحرب التي لا تتوقف، هذا لأننا اعتدنا في غزة أن نعيش حروباً حتى في وقت الهدوء أي بين حرب وحرب، ولأننا لا نملك حياة عادية بمعنىً أدقّ لم تعرفنا الحياة العادية ولم نعرفها، ربما هذا تحديداً ما يجعلنا قابلين للانفجار دوماً على شكل بكاءٍ أو قصيدة.

تبدأ الأحداث العظيمة فتصبح فجأة للفلسطينيين عين واحدة تبكي لبكاء الأمهات، أو قلب واحد نستشعر اختناق الدمع فيه وتحجر الحواس أمام مشاهد القتل والتدمير، حزانى دوماً، حزانى معاً، وأما الفرح فخجول وجانبي!

تفاصيل ظالمة في حياة كل فلسطيني بسبب هذا الاحتلال الذي لا يرانا أو يرانا ولا يريد ملاحظتنا بشراً، يريدنا كما تمنى وكما وصف بلادنا «أرض بلا شعب»، يريدنا شعباً لا يطالب بشيء، ليس له حق في شيء، مخربون نزعج راحته فوق أرضنا بكل محاولاتنا كي نتنفس أو نعبر من أمامه، فما بالكم إذا غضبنا من شدة الظلم؟

إذا غضبنا يُفعل بنا كما شهدتم في غزة في أعلى حد! ويأسرنا في أدنى حد. هذا الاحتلال يريدنا شعباً ذليلاً بلا كرامة، نخدمه بإخلاص إن أمكن، ويفضلنا مقتولين! بأي حق يا الله يحدث لنا كل ما حدث ويحدث؟

مئات آلاف القصص ما زالت تكتب في بلدي، نهاياتها كلها حزينة! إنها ليست مجرد قصص عن موت الذين حلموا بالحرية وتذمروا كثيراً ثم انتفضوا على قتلهم البطيء بالحصار والفقر والبطالة وإغلاق البحر، الذين ثاروا ضد اغتيال حلم المطار ورحلات السفن أو عن قطع أواصرهم الوطنية بما خلف حدود غزة مع باقي مدن فلسطين وأضف إلى ذلك التحكم في ذهابهم وإيابهم الحر والطبيعي عبر الحدود البرية المصرية لغزة! مئات آلاف القصص التي تقول إننا لسنا أرقاماً انتبهوا جيداً إلى كل التفاصيل، واعلموا أن قتلنا بهذه البشاعة شيء وحشي لا نستحقه بشراً ولا يستحقه أحد!

هذا شعب حاول أن يرفع صوته، حاول أن يبدع أسلوباً ما أمام الإغلاق على أنفاسه وسرقة حقه في حياة طبيعية فماذا كان الحل العبقري للعدو الصهيوني أمام هذه الصفعة الفلسطينية في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول؟ كان كالتالي فلنسحق هؤلاء «الحيوانات البشرية» بلا رحمة بكثافة وسرعة، حيث إن القتل البطيء لم يجد نفعاً! الحصار أقسى ما يكون،

التجويع

إنهاء مظاهر الحضارة المدنية،

الرعب بالقتل العشوائي (الإرهاب)،

سحق البنايات والبيوت (التشريد).

يريدونها نكبة جديدة فكيف يستقبل الفلسطينيون والعالم النسخة المطورة من هذا القرار الدموي؟! افتحوا الشاشات وستعرفون كل شيء. لم يعد لهذا العالم البشع ما يخفيه.

أخبرتني جدتي في حياتها عن حكاية الترحيل القسري، وعن خوفهم آنذاك من قصص الذبح في القرى البعيدة مثل مذبحة دير ياسين الشهيرة ومن قنابل تنفجر في أجساد الناس وكيف أنهم كانوا يلتقطون بقاياهم (أشلاءهم) عن أشجار الجميز والصبر!

أخبرتني عن صرة الملابس التي أخذتها على عجل وكانت تصف لي كيف كانت صدمة عدم القدرة على العودة مجدداً، وقسوة الخيام والتخييم وتوزيعات الطعام المذلة في الخيام، بعدما كانوا أعزاء في بيوتهم قرب حقولهم، دواجنهم ومواشيهم!

كانت الحياة وقتها بسيطة وكان القتل فيهم أيضاً يتم بأدوات بسيطة،

كانت الجرائم تتم في جنح الليل أيضاً وتأخذ وقتاً حتى تصل أخبارها من مكان إلى آخر! لم تكن المذابح تبث على الهواء مباشرة وبقنابل هائلة ثقيلة الوزن ومعدة لاختراق المدرعات ودك الحصون مثلما يحدث الآن ضد أجسام الناس وبيوتهم في غزة!

ما أشبه اليوم بالأمس إذن! الاحتلال يجدد عهد الثأر والكراهية مع أبناء شعبي أبشع ما يكون، ويجدد كل أسباب نبذه من الحضارة أغبى ما يكون! وها نحن وبكثافة هذه الأيام نشهد ملخصاً بأفظع الجرائم الصهيونية جيلاً بعد جيل في حق الشعب الفلسطيني جيلاً بعد جيل!

لبلادٍ لم تعد ترسم عينيها بالكحل
وفقدت لذة المرايا،
ينزف حناء دمنا على أصابعها،
تقبض على الجمر،
وتعزفنا نشيجاً متقطّعاً طويلاً

لثوبها المطرّز بالصنوبر والقرنفل والصبر،
لرائحة البرتقال في جيدها تخالط ملح البحر
لدمها الذي يسيل من ثقبٍ يتّسع
يسيل ولا ينتهي
يسيل ونغرق

نحن أبناء حياتك الموتى
ودمنا نهرك الجاري
***
ماذا يعني أن تكون شاعراً في زمن الحرب؟

هذا يعني أن تعتذر
أن تكثر من الاعتذار
إلى الأشجار المحترقة،
إلى العصافير التي بلا أعشاش
إلى البيوت المسحوقة
إلى شقوق طويلةٍ في خاصرة الشوارع
إلى الأطفال الشاحبين قبل الموت وبعده
إلى وجه كل أمٍّ حزينةٍ أو مقتولة!

ماذا يعني أن تكون آمناً في زمن الحرب؟
يعني أن تخجل،
من ابتسامتك
من دفئك
من ثيابك النظيفة
من ساعات ملَلِكَ
من تثاؤبك
من فنجان قهوتك
من أحبائك الأحياء
من شبعك
من الماء المتاح
من الماء النظيف
من قدرتك على الاستحمام
ومن المصادفة أنك ما زلت حيّاً
يا إلهي لا أريد أن أكون شاعرةً في زمن الحرب.

من يعيد إلى نساء غزة ضجرهن العادي؟! من يعيد إليهن مكانسهن، قدور الطبخ وجلسة العائلة حول طعامها الساخن؟

هاني السالمي روائي

عن الحذاء والذباب والسكر المفقود

عمل للفنان الفلسطيني هاني زعرب

اشتريت حذائي مرتين

خرجنا من البيت ولهاثنا عالٍ جداً، لهاثنا يشبه نفخ تنين بعيون حمراء، سائق الشاحنة كان نزقاً جداً، فعجّلنا بالخروج من البيت، فلم نأخذ كل أدواتنا [حاجتنا] وتركنا خلفنا ملابسنا الصيفية، خاصة أحذية المناسبات، كانت في علبة كرتون تحت سرير في غرفة النوم، خاصة أمي التي تركت خلفها في خزانتها البنية المزخرفة بتحت فرعوني قديم، أثوابها المطرزة بالحرير الأحمر والأزرق، مكحلتها النحاسية، كان عندنا اعتقاد أنّنا لن نغيب كثيراً عن البيت سوى يوم أو يومين، حتى تهدأ الصواريخ وصوت القنابل والزنانة التي كانت تلاحقنا في كل مكان، عندما تحركت الشاحنة بدأ شعور بعدم العودة إلى البيت يكبر، بالفعل صرنا جزءاً من تاريخ النزوح الحديث أنا وعائلتي، وتغير الحال من بيت فيه كل ما تحتاجين إليه للحياة ناعمة ومريحة إلى خيمة من قماش وأخشاب ونايلون.. بدأت ملابسنا وأحذيتنا التي جلبناها من البيت ليلة الهروب تهترئ، وكانت العودة صعبة إلى البيت لجلب أشياء أخرى، سمعنا وقتها أن البيت كله قُصِف فصار غباراً، ذهبت إلى السوق لأشتري حذاء، وأنا أتقلب على المعروض في السوق تجد أنهم يعرضون أشياء من أدوات كهربية وكاسات الزجاج وأدوات المطبخ تعرفها، لأن في الحرب انتشر بعض اللصوص، يسرقون البيوت المقصوفة، وأكيد بيتنا كان له نصيب من النهب والسرقة، فجأة تصاب بصاعقة كبيرة تظلّ واقفاً من دون حركة، تجد حذاءك الماركة الإيطالية الأسود اللامع الذي اشتريته بمبلغ كبيرة لمناسبة زفاف أختك الصغيرة، فأنا أحب هذا الحذاء لأنه جعلني مثل آل باتشينو، هممت ناحيته وحملته وقلت للبائع: هذا حذائي من أين جئت به؟ وقبل أن أكمل كلامي رفع سكيناً في وجهي وبصوت أجش: أنا اشتريته من رجل وأريد أبيعه وأربح به، الذي سرقه من بيتك غير موجود. وقفت برهة من الزمن وقلت في نفسي علّي أشتريه بأي ثمن، بالفعل اشتريت حذائي مرتين، وحملته إلى الخيمة، لكن في الحرب لا يوجد مكان للمناسبات السعيدة.. كل الذي أخافه في هذه الحرب أن تطلب مني أمي أن أذهب إلى البيت وأحضر لها أثوابها والمكحلة النحاسية، ماذا سأقول لها!

■■■

شركاؤنا في النزوح

الأيام ثقيلة في النزوح، تنزل دموعك بدون سبب، من القهر الذي تعيشه في الخيمة، وقتها عليك ترك أسلوبك في الحياة قبل النزوح (مزاجك) وتضعه في علبة كرتون وترميها مع علب الكرتون المعدة للنار مع قطع الخشب، ولأن الأيام تدور بسرعة تصبح مراقباً جداً لما حولك، في بداية الأمر تعد الخيام من حولك، بعدها تعد كم شخصاً يسكن في الخيمة الواحدة، تمل من العد، بعدها تصبح متأملاً للنجوم والكواكب وتكتشف النجوم والدب الأكبر والدب الأصغر وتتعجب كيف كانوا في القديم يستدلون على الشمال، تزهق من النجوم والكواكب ولون السماء، تتطور بسرعة وأنت تراقب من حولك، تجد أن هناك شركاء لك في مخيم النزوح، منهم الغرابان الزوجان اللذان يمتلكان المنطقة ويمنعان أي غراب يدخل على منطقتهما وكم معركة صارت، المفاجأة أن الغرابين يأكلان بقايا معلبات الفاصولياء والبازلاء والأرز المصري وبقايا التونة وتقدر أن تفتح بمنقارها العلب المعدنية لأي طعام، في وقت صرخت فيه سيدة من إحدى الخيام لأنه لدغتها حشرة كبيرة اسمها أم أربع وأربعين، حشرة جميلة طويلة قريبة لصغير الحية، بالفعل لها أرجل كثيرة ومتناسقة بجسم انسيابي أسود ناعم الملمس، لكن عليك قتلها، لكن يوماً بعد يوم تكتشف أنك تعيش في مملكة أم أربع وأربعين، ومن أجمل الشركاء زوجا الحمام البني، لونهما جميل لكن هديل الحمامة الأنثى قريب للنواح بل لعبارة «يا خيبتي يا خيبتي» وبالفعل هديلها ينذر بثقل الخيبة التي نعيشها في مخيم النزوح، أمّا هذا الشريك الثالث فهو الخنفساء العملاقة الكبيرة السوداء عندما تدخل عليك الخيمة تقف كالمسمار خوفاً منها والصغار يرتعبون، ولأنك رجل الخيمة عليك أن تحمل هذه الخنفساء بحذر خارج الخيمة، ذباب الصباح هو الشريك الأكثر كرهاً من النازحين، لأنه طوال الليل لا نعرف النوم خوفاً من القصف وننتظر الصباح حتى ننام، لكن يأتي الذباب يهجم عليك من كل مكان حتى يجعلك فريسة للأرق وقلة النوم، حتى وأنت في النزوح ومغلوب على أمرك ومجبر على العيش، والشريك الأخير هو غير حيوي لا يمشي ولا يأكل ولا ينام ولا يتكاثر، إنه الرمل الأصفر الخشن الذي تجده بين أصابع قدميك طوال الوقت، تجده في أذنك، في جيوبك الخلفية والأمامية، يرسو في الأحذية، يشاركك الفراش، وأيضاً في أدوات المطبخ من كاسات وطناجر، في بداية النزوح كنا نحاول أن نتخلص من الرمل الأصفر لكن مع الأيام يصير صديقاً لك في كل وقت، فتقبل به لا غنى عنه، إن فكرة شركاء لك في الحياة أقصد شركاء في النزوح، شيء جديد على حياتنا، لكننا نعيش معها.

■■■

الأيام ثقيلة في النزوح، تنزل دموعك بدون سبب، من القهر الذي تعيشه في الخيمة

أغنية ونصان

تفرك أرنبة أنفك في كل لحظة من لحظات الحرب المتواصلة، ليس للتفكير فقط، ولكن من الغبار المنتشر في الشوارع، تصاب بمتلازمة الزكام، لأن جرافات الاحتلال حين تدخل إلى أي مكان تعيد الطرق المعبدة والبيوت إلى بدايتها الأولى، غبار ورمل، تفاجأ كيف في لحظة تتحول المادة الصلبة من الإسمنت والحديد إلى غبار ورمل، كيف تغوص بيوت كبيرة تحت الأرض ولا يظهر منها أي شيء، وقتها تحك أرنبة أنفك وأنت تتأمل هذا الدمار، الذي يشبه زلزالاً كبيراً، لكنه زلزال أعور، لأنه يدمر خمسة بيوت ويترك بيتاً واحداً من دون أن يصاب بأذى، لكن في المقابل البيوت الخمسة المدمرة ينجو سكانها من الموت، أما البيت غير المدمر يموت سكانه، فتكتشف معادلات غريبة تحدث أمامك لا تفسير لها ولا يمكن لعلماء الرياضيات حلها.

وقتنا كله من دمار وقصف متواصل من دون توقف مثل طائر نقار الخشب الذي ينقر آلاف النقرات ليُحدِث ثقباً صغيراً في شجرة ليبني عشاً أو ليخرج دودة ليأكلها، لكن هذا القصف المتواصل لا نعرف ماذا يريد بالضبط منا. الناس وقت الحرب هربوا إلى جهات باعتقادهم أكثر أمناً وحماية، الكل يدل الآخر إلى الأماكن الأكثر أمناً، يلتصق الناس بعضهم ببعض، في كل متر واحد تجد عشرة أشخاص يمشون ويركضون ويصلون ويغتسلون ويأكلون وينامون ويضحكون ويبكون وينامون في هذا المتر الواحد، حين أرى هذه الزحمة المرعبة، أتذكر أغنية [أحمد عدوية] زحمة يا دنيا زحمة وتاهوا الحبايب، وأكررها في كل وقت خاصة وقت الزحمة.

جلب لنا النزوح [الطوابير] التي تجبرنا على الوقوف فيها. طابور على الماء الحلو، وطابور للحصول على الخبز، وطابور للحصول على الدواء المجاني، والطابور الأكثر شراسة ورعباً طابور الحصول على الكابونة [السلة الغذائية]. تقف ساعات وساعات وقد تصاب بضربة شمس وإغماء للحصول عليها، وقتها أتذكر نصاً لمحمود درويش بعنوان «لا شيء يعجبني». عن جد لا شيء يعجبني في مكان النزوح.

فجأة وبدون سابق إنذار تختفي البضائع من السوق، ومنها السكر، هذه السلع الأكثر طلباً للنازحين. يا سلام حين تشتاق أن تشرب كأساً من الشاي محلى بالسكر وأنت تجلس أمام خيمتك، والأكثر تعاسة أنك لا تجد سكراً في أي مكان، فأتذكر نص صديقتي الكاتبة [هند جودة] لا سكر في المدينة، وأقول وقتها لا سكر في الخيمة ولا ملح للحياة...